الباب الثانى

تحرير المرأة بين الشريعة الإسلامية ودعوة قاسم أمين

توطئة : مفهوم تحرير المرأة

الفصل الأول :تحرير المرأة فى مرحلة الولادة والطفولة .

الفصل الثانى : تحرير المرأة كخطيبة وحقوقها .

الفصل الثالث : تحرير المرأة كزوجة وحقوقها .

الفصل الرابع : حرية المطلقة وحقوقها .

الفصل الخامس: حرية الأرملة وحقوقها .

توطئة

مفهوم تحرير المرأة

لا يوجد لفظ فى الإسلام أو الأديان السماوية الأخرى يسمى « تحرير المرأة»؛ فالمرأة وفقا للشرائع السماوية حُرة ، وإن تفاوتت درجة تكريمها ومدى حريتها ، فبلغت أعلاها فى الإسلام وأدناها فى اليهودية ثم المسيحية .

ولكن الدعوة لرفع ما كانت تعانيه المرأة من ظلم وجبر وقهر واستبداد ـ نتيجة للبعد عن تعاليم الإسلام وأحكامه ـ تزامن مع الدعوة لتحرير البلاد والعباد من الاستعمار الإنجليزى الذى كان يمثل قمة الظلم والجبر والقهر والاستبداد أيضًا، فاشترك كلاهما فى الظلم وتشاركا فى طلب الدعوة للجهاد والسعى حثيثًا للتحرر منهما « التحرير » .

هذا ، وقد قامت هذه الدعوة فى بدايتها على أسس قويمة من الدين تظهر جلية فى كتاب قاسم أمين الأول [1]. تحرير المرأة، ثم ما لبثت أن تحولت ـ فى الكثير من أفكارها ـ عن الدين بدرجات متفاوتة فى كتابه الثانى : « المرأة الجديدة»، حتى أن الكثير من النقاد نسبوا كتابه الأول للشيخ محمد عبده ، ومنهم أ.د محمد عمارة فى موسوعته الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده [2] .

والملاحظ أن الكثير من تعبيراته وأفكاره التى جاءت مستترة المفهوم فى زمانه هى مرجع خصب لدعاة التحرر من بعده المعتدلين والمنحرفين على السواء ، الذين أرادوا إكرام المرأة ، والذين أرادو باسم التحرر الذهاب بكرامتها وقتل عفتها ودفن شرفها .

---

(١) قاسم أمين : مفكر مصرى يعتبر من الرواد الأوائل للدعوة لتحرير المرأة ، وله كتابان هامان هما : تحرير المرأة الصادر سنة ١٨٩٩م ، والمرأة الجديدة الصادر سنة ١٩٠١م .

(٢) أ.د محمد عمارة : الأعمال الكامله للشيخ محمد عبده ، دار الشروق بمصر ، وهى موسوعة عملاقة الإعداد والعرض والفكر والتحقيق .

هذا ، وقد أعلن قاسم أمين الهدف من دعوته فقال : « غاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع ، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال اللائق بصفتها ، فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والأدب ، ومن سعادة الحال فى المعيشة وتحسن استعمال ما لها نفوذ فى البيت » (١) .

وقد شرح المراد بتعبيره فى الفقرة السابقة : « هذا المقام الرفيع » ، وهو ما وصلت إليه المرأة فى الغرب من حقوق حيث قال : « . . . دخلت المرأة الغربية فى طور جديد ، وأخذت فى تثقيف عقلها وتهذيب أخلاقها شيئا فشيئا ، ونالت حقوقها واحدًا بعد الآخر ، واشتركت مع الرجال فى شؤون الحياة البشرية ، وشاركتهم فى طلب العلم فى المدرسة . . ، وجالستهم فى منتديات الأدب ، وحضرت فى الجمعيات العلمية ، وساحت فى البلاد ، ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك ـ الأنثى ـ تلك الذات البهيمية ، التى كانت مغمورة بالزينة ، متسربلة بالأزياء ، منغمسة فى اللهو ، وظهر مكانها امرأة جديدة ، هى المرأة شقيقة الرجل ، وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ومهذبة النوع ، هذا التحويل هو كل ما نقصد » (٢) .

إذن كانت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة دعوةً لتحسين خلق المرأة بما يتناسب مع الكمال الذى تفرضه الشريعة الإسلامية ، لتتخلى عن كل عيب من مبالغة فى زينة ، أو حب لهو وفجور، مع التمسك بوظيفتها الأساسية التى خلقت لها ومن أجلها وهى الزوجة الصالحة والأم البارة مربية الأجيال ومهذبة البنين والبنات.

أما عن طريقة الإصلاح التى أرادها فقد أوضحها فى قوله : « إن ما نريد إدخاله من الإصلاح فى حالة النساء فينقسم إلى قسمين ؛ قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية ، والقسم الثانى يتعلق بدعوة أهل النظر فى الشريعة الإسلامية وضرورتها فيما يختص بالنساء ، وألا يقفوا عند تطبيق الأحكام عند قول إمام واحد ، إنما كان اجتهاده موافقًا لمصلحة عصره ، وأن يدققوا البحث فيما تغير من الأحوال والشؤون » (٣) .

(١ ، ٢) قاسم أمين : المرأة الجديدة ص٦ .

(٣) تحرير المرأة ص١٤٣ .

ويمكن القول : إن الأسس التى قامت عليها دعوة قاسم أمين فى مبدئها هى :

أولاً : الإسلام : ذلك الدين المنصف للمرأة دون سائر الأديان ، والذى يقول عنه : « سبق الشرع الإسلامى كل شريعة سواء في تقرير مساواة المرأة للرجل ، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم ، وخولها كل حقوق الإنسان ، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية ؛ من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أو زوجها . وهذه المزايا التى لم تصل إلى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات ـ كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل إن شريعتنا بالغت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها أحمال المعيشة ، ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط ، وميزت الرجل فى الحقوق .

والميل إلى تسوية المرأة بالرجل فى الحقوق ظاهر فى الشريعة الإسلامية حتى فى مسألة التحليل من عقدة الزواج ، فقد جعلت لها فى ذلك طرقًا جديرة بالاعتبار»[1] .

ويوضح أن ظلم المرأة فى عصره مرجعه البعد عن تعاليم الإسلام وما ورثناه من عادات وتقاليد الأمم غير الإسلامية : « والمفروض أن حالة المرأة تتوقف على درجة التمسك بالدين وتنفيذ أحكامه ، فكلما تمسك المجتمع الإسلامى بأحكام دينه كلما ارتقى بالمرأة إلى أعلى عليين » [2] ، « ولكن واأسفاه ! قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الإسلام ، ودخلت فيه حاملة ما كانت عليه من عوائد وأوهام » [3] .

وعلى ذلك فإن دعوته أساس مرجعيتها الدين الإسلامى الذى أعطى للمرأة مالم يعطها غيره من حقوق فقال : « فإذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية

(١ ـ ٣) قاسم أمين : تحرير المرأة ص٢٦ .

فى تدبر ثروتها والتصرف فيها ، وحثت على تعليمها وتهذيبها ، ولم تحجر عليها الاحتراف بأى صنعة والاشتغال بأى عمل ، وبالغت فى المساواة بينها وبين الرجل إلى حد أنها أباحت لها أن تكون الوصية على الرجل ، وأن تتولى وظيفة الإفتاء والقضاء ، أى وظيفة الحكم بين الناس بالعدل ، وقد ولى عمر ﷺ على أسواق المدينة نساء مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم ، مع أن القوانين الفرنسية لم تمنح النساء حق الاحتراف لمهنة المحاماة إلا فى العام الماضى » (١) .

كما يقول : « والمطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من أنفس الأصول التى يحق لها أن تفخر به على سواها ؛ لأنها منحت المرأة من إثنى عشر قرنا مضت ـ فى زمن المؤلف ـ الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية إلا فى هذا القرن وبعض القرن الذى سبقه » (٢) .

ثانيًا : الثقافة الغربية : ونظرًا لتأثره بالغرب فقد انحرفت الكثير من أفكاره حيث عاش هناك ودرس القانون ونال شهادة عليا فيه ، فأصبحت دعوته فى نهايتها « غربية» غريبة عن الإسلام ، خاصة فى مسائل الحجاب والسفور والاختلاط وعمل المرأة .

* أما سبب قيامه بهذه الدعوة فهو ما عانته المرأة من ظلم وانحطاط ـ فى عصره ، نتيجة لتخلى الناس عن تعاليم الدين الإسلامى حتى أنه يقول : « لا يزال الناس عندنا يعتقدون أن تربية المرأة وتعليمها غير واجبين ، بل إنهم يتساءلون : هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعًا أم هو محرم بمقتضى الشريعة ؟ » (٣) .

وقد أوضح قاسم أمين عدة مظاهر لانحطاط قيمة المرأة فى المجتمع حينذاك: «من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه . . . وأن يمتلئ بيته بجوارٍ بيض أو سود أو بزوجات متعددات يهوى إلى أيهن شاء ، منقادًا إلى الشهوة مسوقًا بباعث الترف

(١) قاسم أمين : المرأة الجديدة ٨ ، ٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) قاسم أمين : تحرير المرأة ص ٣١ .

وحب استبقاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما أوجبه عليه من العدل » (١) .

لم يعتقد قاسم أمين أن ما يدعو إليه هو وغيره - سيؤدى إلى مساوئ اجتماعية ودينية وجنسية ، وغير ذلك ، حيث لم تظهر مساوئ تحرر المرأة فى عصره ، الذى تحول فيه التحرير إلى تحرر ثم صار تحللاً من كل فضيلة ، وانحلالاً من كل خلق قويم ؛ ولذلك عندما يتحدث عن حرية المرأة فى عصره فإنه يتكلم باحترام وإجلال فيقول : « وصل احترام الرجل الغربى لحرية المرأة إلى حد أن الأب يخجل على نفسه فتح الخطابات التى ترد لبنته وكذلك الزوج.

وبلغ من أمر احترام الرجل الغربى لحرية المرأة أن بنات فى سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان فى الأرض وحدهن أو مع خادمة . . . ويقضين الشهور والأعوام متغيبات فى السياحة ، متنقلات من بلد إلى آخر ، ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما . كان من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، ورأى غير رأى الزوج ، وأن تنتمى إلى حزب غير الحزب الذى ينتمى إليه الزوج. ومع ذلك نرى نظام بيوت الغربيين قائمًا على قواعد متينة ، ونرى هؤلاء الأمم فى نمو مستمر ، وما سمعنا منهم أن اختلاط الرجال بالنساء يؤدى إلى اختلاط الأنساب ، وأنه متى اختلطت الأنساب وقعت الأمة فى هلاك . . لنترك هذه النظريات الخيالية التى لا قيمة لها أمام الواقع » (٢) .

كما أنه يصر على صحة نظريته فيقول : « هل يظن المصريون أن رجال أوربا ، مع أنهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغا مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده بأعيننا . . . هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس . . . . يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة

---

(١) قاسم أمين ، تحرير المرأة ص ٢٨ ، ٢٩ .

وهذا ليس من الإسلام : حيث أوضحت السنة أن رفع الرجل للقمة إلى فم زوجته صدقة، وفى هذا دليل على استحباب الأكل والشرب معها وتبادل الإطعام .

(٢) قاسم أمين : المرأة الجديدة ص ٥١ .

وحفظ عفتها ؟! هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيرا فيه » [1] .

ولكنه وأسفاه ، وبعد مرور سنوات قليلة بدأت تظهر الآثار السلبية المدمرة رأى داعية تحرير المرأة أنه من الفضائل ، وما أنكره من من انحلال المجتمعات واختلاط الأنساب ـ قد تم فأصبح المنادون بتحرير المرأة ، ينادون بضرورة الاعتراف باللواط والسحاق والشذوذ بجميع أشكاله ، وزاد الأمر سوءًا أن بعض المجتمعات والكنائس الغربية التى يتشدق بتقدمها ـ أحلت زواج الرجل بمثله والمرأة بأخرى ، وأحلت إنجاب المرأة لوليد غير معروف الأب ، وتنادى بتعميم ذلك الأمم المتحدة عن طريق منظماتها وقوانينها . . . وأعتقد أن قاسم أمين لو كان حيًا هذه الأيام ومنصفًا لطالب بإعادة سجن المرأة وتحرير الرجل ؟!!

وسنقوم ـ بإذن الله ـ فى هذا الباب بعرض ما وهبه الإسلام للمرأة من حقوق منذ ولادتها حتى بلوغها وخطبتها وزواجها وترملها وطلاقها وغير ذلك مع الاهتمام وإفراد دراسة منفصلة وتفصيلية عن الحجاب ، وعمل المرأة وختان المرأة وغير ذلك ، مع المقارنة بما شرعه الإسلام وما طالب به قاسم أمين ، ومدى اتفاق مطالب قاسم مع أحكام الإسلام أو اختلافها معه .

---

(١) المرأة الجديدة ص٥١ .